إصلاح التعليم بالمغرب
مطلب قديم

د. بوعلام السباعي
باحث في التاريخ المعاصر
الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة الشرق
المغرب

مدخل

لا يخفى ما للدراسات التاريخية من أهمية لفهم الواقع واستشراف المستقبل، فلا يمكن تجاوز التحديات الأنية دون الحفر في الذاكرة التاريخية لاستنباط العبر واستنهاض الهمم. وتاريخ المغرب مليء بالمحطات التي يمكن الرجوع إليها لتحقيق تلك الغاية، فهذا البلد منذ الفتح الإسلامي كان ثغرا من ثغور الإسلام التي حفظت للأمة عزتها وللوطن هيبته، وما قيادة المغاربة للفتح الإسلامي بالأندلس، ونجدتهم لإخوانهم الأندلسيين على عهد المرابطين، ومعارك الموحدين، وتوسيع النفوذ ببلاد السودان أيام السعديين، وتوحيد المغرب من جديد على يد السلطان إسماعيل إلا دليل على امتلاك مقومات النصر التي يشكل العلم أحدها إن لم يكن أهمها.

اهتمام الدول بالمغرب بالتعليم

شكل التعليم ركنا أساسيا لبناء الدول واستمراريتها بالمغرب، فقد تمكن الأدارسة من إقامة دولتهم شمال المغرب، لكنهم لم يستطيعوا مراقبة طرق التجارة الصحراوية، مما أضعف مواردهم المالية، وبذلك لم يتمكن حكام هذه الدولة من تشجيع ودعم الأوساط العلمية، ورغم ذلك وجد بعض العلماء والأدباء، كما برز بعض الفقهاء بإمارة بورغواطة التي عاصرت دولة الأدارسة، ومنهم من تلقى دراسته بالشرق[1].

بعد الأدارسة عمل الزناتيون على تشجيع الحركة الفكرية، فازدهرت العلوم لاسيما الشرعية، غير أن الاضطرابات السياسية التي عرفها المغرب خلال هذه الفترة، دفعت بكثير من الفقهاء والمثقفين إلى الهجرة إلى إفريقية والأندلس، مما أثر سلبا على الانتعاش الذي عرفه ميدان التعليم. لكن بعد توحيد المغرب تحت راية المرابطين ستعرف الحركة الفكرية طفرة نوعية، ذلك

[1]- ابراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء، طبعة 2020م ، ج 1 ص 129.

أن العلم شكل ركيزة أساسية في قيام هذه الدولة، فمن رحم رباط عبد الله بن ياسين الذي كان رباط علم وتزكية، خرجت الدعوة المرابطية التي تحولت إلى دولة قوية، لاسيما مع يوسف بن تاشفين، وقد ساعدها انطلاقها من الجنوب في الاستفادة من عائدات التجارة بالصحراء، مما مكنها من تشجيع العلماء والإغداق عليهم.

شكل ميدان الفقه تربة خصبة للتعليم خلال هذه المرحلة، فقد كان مؤسسو الدولة تلاميذ لأبي عمران الفاسي أبرز فقهاء المالكية بالقيروان، ولعبد الله بن ياسين الذي درس على فقهاء المالكية بغرناطة، وعلى وجاج بن زلو الذي أسس أول مدرسة بالمغرب خلال مرحلة الدعوة المرابطية[1].

وإذا كان الفقه قد حظي باهتمام وتشجيع الدولة المرابطية، فإن هذا لا يعني تغييب علوم أخرى كالحديث الذي شهد ظهور بعض المؤلفات في شرح صحيح مسلم، وكتاب "الشفا" للقاضي عياض، وبرز في مجال التفسير والقراءات علماء من أمثال أحمد التميمي الفاسي وأبو بكر بن الجوزي، وفي ميدان الجغرافيا ألف الرحالة الإدريسي الذي عاصر المرابطين كتابه الشهير "نزهة المشتاق"

أفسح الموحدون المجال للعقل حتى يخوض في مختلف القضايا، وبذلك عرف النشاط الفكري ذروته خلال هذا العصر الذي شهد وفود عدد كبير من العلماء والأدباء إلى أرض المغرب بسبب التوترات السياسية التي شهدتها الأندلس والقيروان. كما ساهمت الموارد المالية الضخمة في الإنفاق على طلاب العلم، وتقريب العلماء، وبناء المكتبات، والمعاهد. ومما يؤكد ازدهار الحركة العلمية وقت الموحدين، مشاركة ملوك الدولة في مجالس العلم التي لم تقتصر على الفقه، حيث كانت مجالس علم وأدب وسياسة في آن واحد[2].

إذا كان الفقهاء أحد ركائز الدولة المرابطية، فإن الموحدين الذين اعتبروا الحديث مصدرا مباشرا للتشريع سيقربون المحدثين الذين برز منهم علماء كبار كأبي علي بن محمد الكتاني. وبما أن القرآن أهم مصدر للتشريع، فقد اتسعت العناية بتفسير القرآن خلال هذا العصر الذي شجع الكتابة التاريخية التي شهدت ظهور بعض المؤلفات "كأخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة

[1]- حركات، م س ص 158

[2] -حركات م س ص 350

الموحدين" لأبي بكر بن علي الصنهاجي المعروف بالبيدق، و"تاريخ الموحدين أولاد عبد المومن بن علي الكومي" ليوسف الإشبيلي، و "المعجب في تلخيص أخبار المغرب" لعبد الواحد المراكشي .

في مجال العلوم العقلية عرفت الرياضيات انتعاشا ملحوظا للحاجة إليها في مهام التوقيت وهندسة البناء، ومن أشهر من اشتغلوا بالعلوم الرياضية أبو محمد عبد الله الفاسي الذي خدم المنصور والناصر، كما قدم فلكيون ومهندسون من الأندلس لخدمة الموحدين. وشهد الطب الذي ارتبط بالفلسفة خلال هذه المرحلة اهتماما واضحا، وكان المنصور نفسه ممن يهتمون بالطب، وقد أسس مستشفى بمراكش، ومن العلماء الذين اهتموا بالطب سعيد الغماري ويوسف الفاسي الذي جمع بين الطب والعلوم الرياضية.

بعد الموحدين آل حكم المغرب لبني مرين القبيلة التي كانت تنقصها النحلة لتثبيت أركان حكمها، ولذلك عمل المرينيون على تقريب العلماء، كما اهتموا ببناء المدارس التي ميزت عصرهم، وألحقت المكتبات والخزائن العلمية بالجوامع والمدارس، وأنفقوا على الأساتذة وتكفلوا بإيواء الطلاب والنفقة عليهم، مما انعكس على الحركة الفكرية تقدما وانتشارا.

حظي الفقه باهتمام كبير من قبل المرينيين الذين أعادوا السيادة للمذهب المالكي الذي كان منتشرا خلال العهد المرابطي، وشجعوا التأليف في الفروع الذي تراجع مع الموحدين الذين اقتصروا على الأصلين الرئيسين في التشريع، الكتاب والسنة. ومن الأدلة على انتشار الفقه المالكي خلال هذا العصر تزويد المغرب للمشرق، ولا سيما بلاد الشام بعدد كبيرمن القضاة والفقهاء المالكية، من بينهم إبراهيم الصنهاجي وبدرالدين الغماري، وأحمد بن يعقوب الغماري قاضي حماة، كما كثر التأليف في الفرائض، وتعددت الشروح الفقهية "كشرح الموطأ "للزناتي، و"شرح مختصر خليل" للقوري .

ورغم التركيز على الفقه، فقد شهدت علوم أخرى طفرة واضحة، كعلوم اللغة التي اهتم بها الطلاب دراسة والأساتذة تدريسا، وقد صنفت مؤلفات في هذا الباب، اعتمد عليها المغاربة بغد أفول نجم الدولة المرينية "كشرح كتاب سيبويه" لابن رشد، و"شرح مقصورة أبي حازم الغرناطي" لمحمد الحسني و"الأجرومية" لأبي عبد الله بن أجروم.

وحرصا منهم على تدوين أمجاد دولتهم وتخليد مآثرهم، شجع المرينيون على كتابة التاريخ، ولذلك انتشرت التآليف التاريخية، وعلى رأسها "الأنيس المطرب بروض القرطاس" لابن أبي زرع، و"الحلل الموشية"، و"الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية" الذي نسب لمؤلف الأنيس المطرب،

ولا يمكن أن نغفل "المقدمة" وكتاب "العبر" للمؤرخ الكبير عبد الرحمان بن خلدون، كما عرف هذا العصر انتشارا لكتب الرحلة "كرحلة ابن بطوطة" و"رحلة ابن رشيد السبتي" و"رحلة العبدري". وخصصت للطب كراسي بالقرويين، وبرز خلال هذه المرحلة أطباء من بينهم أبوالحسن علي المراكشي، وأبوالعباس أحمد الفاسي طبيب أبي سعيد وكاتبه، كما استدعى علم الفرائض إلزامية تعلم الحساب الذي جذب الطلاب لدراسة الهندسة.

زمن الوطاسيين تراجعت الحياة العلمية، وحتى وإن استمرت العناية بالمدارس، فإن بناءها تراجع عما كان عليه في الفترة المرينية. وفي مجال العلوم شهد الفقه وفق مذهب مالك اهتماما لم تحظ به علوم أخرى، حيث تراجع الأدب وغاب الابتكار في علوم اللغة. وعموما لا يمكن مقارنة التعليم خلال فترة حكم الوطاسيين بالتعليم أيام المرينيين والموحدين أو حتى المرابطين، حيث ظل يقتات على ما خلفته هذه الدول، فقد غاب الاجتهاد وساد التقليد، كما عرف علم التاريخ تراجعا كبيرا، وبذلك كانت الدولة الوطاسية أقل ذكرا في كتب التاريخ.

ارتكز السعديون في تأسيس دولتهم على الزوايا، ومع وصولهم للحكم اتسع نفوذها وازداد نشاطها ليشمل عدة مجالات، فعلاوة على التأطير الديني والتربوي، ساهمت في مختلف أعمال البر، كما كانت مقصد طلاب العلم، ومن أهم الزوايا التي ذاع صيتها خلال هذه المرحلة، الزاوية الجزولية التي صار لها أتباع حتى من خارج المغرب.

كما عمل ملوك السعديين على تشجيع العلم وأهله، لاسيما أحمد المنصور الذي كان يخصص مواسم للعلم والثقافة والفكر، ومحطات للتباري بين العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء، كما اتخذ من ليالي رمضان فرصة للتناظر بين العلماء، و اشتهر هذا السلطان بجمع الكتب وتحبيسها. أما زيدان فقد قام بتكليف أحد الإيرلنديين بترجمة بعض الكتب من اللاتينية إلى الإسبانية التي كان يتقنها معظم ملوك السعديين، ثم ترجم بعد ذلك إلى العربية[1]. وكان المأمون علاوة على ثقافته الأدبية واهتمامه بالفقه ذا معرفة بالطب.

ولتشجيع الطلاب والأساتذة وحثهم على البحث عملت الدولة السعدية على بناء المكتبات التي أُلحقت بالجوامع الرئيسية، كما عملت بعض الأسر المغربية، خاصة بمنطقة سوس على تنشيط المعرفة بمدارس المنطقة وبناء المكتبات، أما عن العلوم المدرسة فقد غلبت عليها العلوم الشرعية، حيث أقبل الطلاب على علم القراءات والفقه الذي تعزز بانتشار كتب النوازل.

[1]- حركات ، م س ج2 ص400.

وللحفاظ على العقيدة التي تأثرت بمخالطة النصارى لاسيما بالمدن الكبرى، دفعت الأسر أبناءها للتشبع بالعقيدة الإسلامية الصحيحة، كما شهدت اللغة إقبالا واسعا، لا سيما في الأوساط الأمازيغية[1]. وإذا كانت الدولة الوطاسية قد عانت من قلة ذكرها في كتب التاريخ، فإن الدولة السعدية كلفت مجموعة من المؤرخين بوضع تاريخ يخلد أمجادها، ولعل أشهرهم الفشتالي صاحب "مناهل الصفا".

حرصت الدولة العلوية على توحيد المغرب تحت راية واحدة بعد أفول نجم السعديين، ولتحقيق هذه الغاية خاض السلاطين المؤسسين، لا سيما السلطان إسماعيل حروبا ومعارك من أجل نبذ الفرقة ورص الصفوف، وإلى جانب اعتمادها على القوة العسكرية كسبيل لبسط نفوذها على مختلف مناطق المغرب، اتخذت الدولة العلوية من الوحدة المذهبية مرتكزا لنبذ الخلافات داخل المجتمع المغربي، ولذلك جعلت من التعليم أداة لوحدة المذهب الفقهي الذي يجسده مذهب الإمام مالك، وعقيدة أهل السنة والجماعة عنوانا للوحدة العقائدية، وفي مجال القراءات أجمع المغاربة على قراءة ورش عن نافع[2].

بعد فترة الثلاثين سنة التي أعقبت وفاة السلطان إسماعيل، شهد المغرب صراعا على الحكم أدى إلى غياب الأمن والاستقرار الذي يعتبر شرطا أساسيا لطلب العلم. وبعد أن آل حكم المغرب إلى السلطان محمد بن عبد الله، عاد الاستقرار وتمكنت الدولة من استعادة هيبتها، مما أدى إلى ازدهار التجارة الداخلية والخارجية التي وفرت موارد مالية يمكن استثمارها في تنشيط الحياة العلمية، فقد انشأ هذا السلطان مدارس في عدة جهات، مما شجع الطلاب على الإقبال على العلم. وبموازاة مجهودات الدولة في نشر العلم والمعرفة، احتضنت الأوساط الشعبية الطلاب، وأنفقت على المدارس والمدرسين، لا سيما ببعض الجهات التي قصرت يد الدولة عن الاهتمام بها كسوس ودكالة[3].

وفي عهد السلطان سليمان ألحقت المكتبات بالمدارس والمعاهد، وتم دعم التبادل الثقافي بين علماء المغرب وعلماء العالم الإسلامي. كما شجع هذا السلطان على الإقبال على العلم، فازدهرت في عهده علوم عدة، وقد كان هو نفسه متضلعا في الفقه، وعلوم القرآن، وألف في الأدب

[1]- م ن ج2 ص409.

[2]- اسية الهاشمي، النهضة العلمية على عهد المولى سليمان، مطبعة المعارف الجديدة الرباط، طبعة 2006م ، ص 26.

3- حركات، م س ج3 ص534.

وأمر بالتأليف فيه، وفي عهده ظهرت الأعمال التاريخية الوازنة على يد مؤرخين كبار من أمثال أبي القاسم الزياني، ومحمد بن أحمد أكنسوس والضعيف الرباطي.

ورغم أهمية النهضة العلمية التي قادها السلطان سليمان، بقي التعليم بالمغرب بعيدا عما كان عليه بديار أوروبا التي صدمت المغرب في معركتي إيسلي وتطوان، مما فرض على المغرب الانخراط في الإصلاح للحفاظ على استقلاله، ومنع الدول الإمبريالية الطامعة في احتلاله من تحقيق مآربها، وهكذا أصبح الإصلاح ضرورة ملحة للوقوف في وجه تلك الأطماع.

كانت هزيمة إيسلي عسكرية لكنها كشفت عن ضعف المغرب في مجالات شتى، فهذه القوة العسكرية الفرنسية التي أربكت المغرب، وليدة تحولات شهدتها أوروبا منذ عصر النهضة مرورا بعصر الأنوار الذي ازدهرت فيه العلوم وتألق فيه الفلاسفة، وبذلك شكل التعليم رافدا أساسيا في صناعة تلك القوة .

لقد شكل إصلاح الجيش أولوية لدى سلاطين المغرب خلال الفترة التي أعقبت حربي إيسلي وتطوان، ورغم أهمية الإصلاحات العسكرية، إلا أنها لا يمكن أن تؤتي أكلها دون إصلاح شامل تشكل قضية التعليم فيه أم القضايا، وإدراكا لهذه الحقيقة تعالت الدعوات المطالبة بإصلاح التعليم.

دعوات إصلاح التعليم قبيل فترة الحماية

من بين العلماء الذين نادوا بالإصلاح المشرفي[1] الذي بث دعوته تلك في سياق انتقاده لمشاورة الأعداء الطامعين في احتلال المغرب، وعلى رأسهم الإنجليز الذين أشاروا بإنشاء سكة الحديد خدمة لمصالحهم، حيث أن المغرب لم يكن خلال هذه المرحلة في حاجة إلى إنشائها، وحتى إن أراد إنشاءها، فعليه أن يعتمد على الذات في ذلك، بدل الاستعانة بالإنجليز ودفع الأموال لهم في مرحلة كان المغرب في حاجة ماسة إلى المال، وهو الذي أفرغت خزينته بسبب الغرامة المالية التي فرضتها إسبانيا عقب انتصارها في حرب تطوان.

[1] _أبو عبدالله محمد بن محمد بن مصطفى الأحمر المشرفي ولد في غريس بأحواز مدينة معسكر غرب الجزائر حوالي 1255هـ/1839م، ثم هاجر إلى فاس صحبة أبيه حوالي 1260هـ/1844م ،وبها تكون تكوينا علميا على طريقة عصره ، فكانت الحصيلة بروزه كشخصية مثقفة تجمع عدة تخصصات إلا أنه اشتهر كمؤرخ و برز كمصلح عبر عن أرائه الإصلاحية بكل صراحة و جرأة. محمد المشرفي، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية، تحقيق إدريس بوهليلة ، دار أبي رقراق للطباعة والنشر الرباط، الطبعةالأولى 2005م ج1 ص ص 65-71.

وفي هذا الشأن يذكر المشرفي أن" ما سلكه الإنجليز من تقديم سكة الحديد على ما عداه من السياسة لغش وخديعة ومكر، ليتوصل بذلك لغرضه من الاختصاص والامتزاج، الذي هو سبب التمكن من الاستيلاء على المغرب لنفوذ اوامره ونواهيه"[1].

إن هذا الموقف من المشرفي لا يعني اتخاذه موقف من الاختراعات الأوروبية، وإنما أراد هذا الرجل أن تنبثق عملية الإصلاح من الداخل المغربي، لا أن تفرض من قبل قوى أجنبية طامعة في احتلال المغرب، ثم لابد أن يتعلم المغاربة أنفسهم تقنية إنشاء المشاريع، ولا يكون هذا الأمر إلا بالاهتمام بالتعليم وتطويره، خاصة العلوم الحقة التي كانت لأوروبا اليد الطولى فيها خلال هذه المرحلة في تاريخ المغرب، ولذلك يعتبر إدخال العلوم الرياضية والاهتمام بها أهم من إنشاء تلك السكة، وفي هذا الإطار ذكرأنه " ولو أرادت انجلترا النصيحة الحقيقية دون دسيسة لأشارت عليها (الدولة المغربية) بإدخال العلوم الرياضية لوطنها وبناء المدارس لقراءتها وتدريسها، والاجتهاد في تحصيلها وبثها في المدن والقرى والقبائل، حتى يتأدب الجاهل، ويستأنس المتوحش فنكسب الدولة حينئذ رجالا يدافعون عنها بما علموا من العلوم الرياضية"[2].

كما دعا ابن سعيد[3] من خلال مشروعه الإصلاحي إلى "إحداث مدارس لتعليم مهمات جديدة يتوقف نفوذ النجاح عليها وعلى معرفتها "[4] ، وهذه المهمات الجديدة عنوانها الأبرز العلوم المشتركة بين بني البشر، من رياضيات وفيزياء وغيرها، أي العلوم العصرية المرتبطة بمختلف مناحي الحياة من صناعة وتجارة وغيرها، وإذا كان موطنها خلال المرحلة موضوع الدراسة أوروبا، إلا أن أصولها تعود لديار المسلمين يوم قاد المسلمون العالم، ولذلك يرى ابن سعيد ضرورة استعادة هذه العلوم وعودتها إلى ديارها الأصلية ومن بينها المغرب.

ولوضع حد للتدخلات الأوروبية وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، حاول مشروع العهد العزيزي استلهام التجربة اليابانية للنهوض بالمغرب حتى يتمكن من الوقوف في وجه الأطماع الأوروبية، وقد ارتكز هذا المشروع على التعليم لتحقيق تلك الغاية، واقترح أن تتم إعادة وضع التعليم تحت إشراف مؤسسة الأوقاف، كما حاول هذا المشروع إشراك المجتمع في عمليتي تسيير وتمويل التعليم، خاصة أن ميزانية الدولة كانت عاجزة عن تحقيق هذا الغرض.

---

[1]- المشرفي م س ج2 ص 250.

[2]- م ن ص 251.

[3]- كان عدلا بمرسى الرباط، ثم عاملا بسلا أيام السلطان الحسن الأول، ثم أمين ديوانة طنجة، ثم عضوا بدار النيابة، توفي عام 1923م.

[4]- حركات، التيارات السياسية و الفكرية بالمغرب، دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء، الطبعة الثانية 1994م ص134.

وبالفعل، فقد ارتبط التعليم في العالم الإسلامي بمؤسسة الأوقاف، مما أكسبه استقلالية منحت العلماء حرية البحث والتفكير والتعبير، لكن كما هو معلوم فإنه مع مجيء المرينيين بالمغرب أصبح التعليم تحت الرقابة والوصاية المباشرة من قبل السلطة السياسية، ولذلك قال الابلي أستاذ ابن خلدون في العلوم العقلية معلقا على ظاهرة انتشار المدارس في العهد المريني " إنما أفسد العلم بناء المدارس وكثرة التاليف"، لأن هذه المدارس ستكون تابعة للجهة التي بنتها، مما سيحد من حرية العلماء و المتعلمين، والحرية شرط أساسي لنجاح أي مشروع إصلاحي، كما أن أوروبا لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بعد تحرر العقل الأوروبي من قيد الفكر الكنيسي.

أما مشروع دستور 1908 [1]م فيعتبر رائدا مقارنة بمشروع 1906م، حيث نص على إلزامية التعليم الابتدائي، ودعا إلى إنشاء وزارة للمعارف، وإلى إشراك المجتمع من أجل إنجاح عملية إصلاح التعليم المتضمنة في هذا المشروع، كما قسم مراحل التعليم إلى ثلاث: ابتدائية ، ثانوية و عليا.[2]

أما السليماني[3] صاحب اللسان المعرب فقد ارتكزت دعوته لإصلاح التعليم على الجانب القيمي الذي يعتبر الدين وعاء له قائلا:" ليعلم أولا أن الدين والعلم توأمين متلاصقين، فصلهما يؤدي إلى هلاكهما معا. وقالوا العلم ينمو متى كان دينيا، والدين يثبت متى كان علميا، وشرط في المدارس أن يكون الأدب الديني والأدب الوطني أول ما يتربى عليه التلميذ"[4].

كما حدد هذا العالم سن التحاق الطفل بالكتاب في الخامسة، وقد ارتكز التعليم بهذا المحضن على القرآن وتعلم الكتابة وآداب العبادة، لا سيما الصلاة التي هي عماد الدين والوضوء الذي لا تصح الصلاة إلا به.

بعد بلوغ الطفل سبع سنين يلتحق التلميذ بالمدرسة الابتدائية التي اقترح السليماني أن تكون مرحلة لتعلم علوم اللسان العربي ومبادئ النحو والصرف، إضافة إلى العقيدة والفقه

[1] أشار محمد المنوني إلى هذه المشاريع في المصادر العربية لتاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب الرباط، الطبعة الثانية 2014 م ج2 ص 148.

[2] حركات، التيارات السياسية، ص 135.

[3] أبو عبد الله محمد بن الشريف السليماني المولود بفاس سنة 1285هـ، ساهم في التصدي للضغوط الاستعمارية داعيا إلى الإصلاح كما ساهم في تأسيس أول مدرسة حرة بفاس سنة 1340هـ . أبو عبد الله السليماني، اللسان المعرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب، مطبعة الأمنية الرباط الطبعة الأولى 1971م، ص 1.

[4] م ن، ص 162.

ومبادئ الحساب والجغرافيا، والتعريف بتاريخ الوطن وأعلامه وعلمائه السابقين. كما دعا إلى الانفتاح على العلوم التجريبية، حيث حث على أن يتم تعليم التلاميذ خلال هذه المرحلة علم طبقات الأرض والمعادن، والنباتات والحيوانات، ومبادئ حفظ الصحة ومفردات الأدوية، ثم ما به يحفظ الرزق من أصول الزراعة والصناعة.[1]

وعن منهج التربية خلال هذه المرحلة يقول السليماني:" وصفة الدرس أن يملي الأستاذ على التلاميذ الدرس المعين، وهم يكتبون ما يملي عليهم في كتب صغار معدة للدرس، كي تسهل مراجعتها، وبعد تمام الدرس يملي عليهم أسئلة وأجوبة فيما كتبوه".[2]

المدرسة الثانوية :

بعد إكمال التلميذ أربع سنوات المرحلة الابتدائية يكون مؤهلا للالتحاق بالمدرسة الثانوية التي يقرأ فيها التلميذ ما أجمله في المدرسة السابقة قراءة تحقيق، كما يضيف إلى ما سبق علم التجويد وعلم البيان، والمنطق وأصول الفقه، والحديث والتفسير، والتاريخ وعلم الكلام، إضافة إلى الجبر والهندسة، وعلم الهيأة والتقويم، وكسابقتها يستمر الطالب بالمدرسة أربع سنوات[3].

المدرسة العليا للجامعة:

خلال هذه المرحلة يتخصص التلميذ أو الطالب في دراسة علم محدد يكون من اختياره، وعن بعض فوائد التخصص يذكر السليماني أن "الانشغال بالفن الواحد يبلغ بصاحبه المبلغ الذي يريد، لأن العلم يعطيك من نفسه ما تعطيه من نفسك. كما ينتقل الطالب خلال هذه المرحلة من التلقي إلى البحث، حيث لا يقتصر التلميذ الحاذق على دروس المدرسة، بل نفسه تؤديه إلى زيادة العلم خارجها"[4].

[1] م ن .
[2] السليماني
، م س ص 163
[3] السليماني، م س، ص 164
[4] م ن.

دعوات إصلاح التعليم خلال فترة الحماية

يعتبر الفقيه الحجوي[1] من أهم دعاة إصلاح التعليم خلال فترة الحماية، وتميز عن باقي دعاة إصلاح التعليم قبيل فترة الحماية أنه تمكن من تحقيق بعض رؤاه الإصلاحية، فقد ساعدته في ذلك وظيفته كمندوب للمعارف لمدة عشرين سنة. وقد اعتبر هذا المصلح أن العلم مدخل أساسي لأي مشروع إصلاحي يروم تحقيق سيادة الوطن ورفعته، فبالعلم ارتقت الفلاحة والصناعة والتجارة، وبه وصلت الدول أوج المعالي، بالعلم ينقلب البر بحرا والتراب تبرا، والبدوي الحافي يتدفق أدبا ونبلا حتى يصير قاضيا وموثقا... ومهندسا وطبيبا"[2].

تمكن الحجوي خلال رحلته إلى الديار الأوروبية من الوقوف على بعض أسباب انتشار العلم في تلك الديار، ومنها بناء المدارس والنوادي، وتضافر جهود المجتمع والدولة، فكل مدينة أو قرية أوروبية ترى فيها المدارس مشيدة، ونوادي العلم عامرة، نظمت لذلك جمعيات، زيادة على الحكومات التي جعلت للمعارف وزارات"[3].

وللمحافظة على الشخصية المغربية أمام موجة التغريب التي قادتها سلطات الحماية الفرنسية، دعا هذا الفقيه المصلح تأسيس المدارس ونشر المعارف، غير أن المغاربة المتوجين من أي مشروع تشرف عليها فرنسا الاستعمارية، أحجموا عن الالتحاق بهذه المدارس إلا بعد أن اقنع الحجوي هذه السلطات بضرورة إدخال تعليم القرآن والعربية ومبادئ الدين الإسلامي، وبذلك ازدهر التعليم وامتلأت المدارس[4] .

إن اقناع الحجوي لسلطات الحماية بضرورة تعليم القرآن والعربية دليل على محاولة طمس فرنسا هوية المغاربة المنبثقة عن هذين المصدرين، كما أن إحجام المغاربة عن الالتحاق بتلك المدارس الجديدة دليل على تشبتهم بقيم التي يشكل الإسلام أهمها، وكذلك وعيهم بخطورة المخططات الفرنسية التي كانت تهدف إلى إبعاد المغاربة عن تلك القيم.

---

[1] محمد بن الحسن الحجوي من اسرة عالمة متفتحة عاش ما بين 1874 و1956م ، فقيه وعالم و موظف مخزني عاصر مرحلة التدخل الأجنبي وفترة الحماية

[1] محمدالحجوي، خطبةألقاهاعلى تلاميذ أولادالأعيان بالرباط، م خ ع، ح 118.

[2] الحجوي، الرحلة الأوروبية، م خ ع، ح 115.

[3] آسية بنعدادة، الفكر الإصلاحي في عهد الحماية، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، الطبعة الأولى 2003م ص247.

وإذا كانت المدن المحضن الأول لتلك المدارس، فقد كان للبوادي نصيب منها وهذا ما تؤكده آسية بنعدادة بقولها: "وبعد ما تغلغلت فكرة التعليم في أذهان المغاربة، عمل الحجوي بمساعدة سلطات الحماية على تأسيس المدارس في البوادي"[1].

وحتى لا تزيغ النهضة العلمية عن جادة الصواب، ولكي يكتب لها النجاح، جعل لها الحجوي شروطا أربعة [2]:

1- المعلمون: الذين اشترط فيهم الصدق في تأدية مهمتهم والقدرة على تبليغ ما لديهم وإيصاله إلى عقول التلاميذ.

2 - المتعلمون: واشترط فيهم الرغبة والصدق في طلب العلم دون الالتفات إلى كل ما يشغلهم عن سلوك طريقه.

3- الاباء: الذين عليهم أن يحثوا أبنائهم على طلب العلم، مع توفير شروطه ولوازمه وعدم تكليف أبنائهم بأي شيء يصرف عن ذلك الطلب.

4- الحكومة: التي عليها أن تبني المدارس وتصرف الأموال للإنفاق عليه وعلى المنتسبين إليها.

وحتى يستفيد المجتمع من التعليم داخل هذه المدارس، لا يجب أن يبق اختياريا متروكا لرغبة الأفراد و ميولا تهم، بل على الدولة إلزام الرجال والنساء للإقبال على العلم، لا سيما في المراحل الأولى من العمر على شاكلة دول أوروبا التي دفعت أبنائها للالتحاق بالمدارس طلبا للعلم، حيث أن "التعليم عندهم إجباري على الرجال والنساء، فكل صبي يبلغ سن التعلم لا بد له أن يدخل المدرسة و يتعلم التعليم الابتدائي، ثم من كان غنيا وأراد التعليم الثانوي تقدم إليه، ومن كان فقيرا وليس له داعية العلم، فلا بد أن يعرف صناعة من الصناعات، وهكذا نرى قدرا من العلم اشترك فيه الذكر والأنثى، الغني والفقير، بذلك القدر ارتقى مجموع الأمة من الحضيض الذي وقع فيه مجموع الأمم غير المتميزة كالمغرب الأقصى مثلا "[3].

كالمغرب، لتركيزها على الحفظ دون إدراك لمعاني ما نحفظ، ودون محاولة الفهم، إذن "ليس المراد حفظ العلم بل يجب أن نربي فيهم (الطلبة) ملكة التفكير، فمهما كان فكر الصبي إلا وصار

[4] م ن ص 248.

[5] بنعدادة، م س ص 250.249.

[1] الحجوي، الرحلة الأوروبية م خ ع، ح 115

يعشق العلم"[1]. وفي إطار حثه على إصلاح مناهج التعليم، دعا إلى ضبط عدد السنوات التي يقضيها المتعلم في كل مرحلة من مراحل الطلب، حتى لا يقضي سنوات طويلة دون تحقيق نتائج مهمة أو الإلمام بعلوم مختلفة، مشيرا إلى أن التلميذ ببلدان أخرى يحصل العلم الابتدائي في سن العاشرة لينتقل بعد ذلك إلى المرحلة الثانوية التي يقضي بها من خمس إلى ست سنوات، ثم ينتقل إلى المرحلة الجامعية التي يتخرج منها عالما وهو لا يتجاوز سن السادسة والعشرون.

وإذا كانت العلوم الشرعية أساس العلمية التعليمية بالمغرب منذ نشأة الدولة بالمغرب، فإنه بعد الصدام مع الآخر وهجوم الاستعمار على ديار المسلمين، وفرض الحماية على المغرب، وجب الانفتاح على العلوم الحديثة التي شكلت سر قوة أوروبا وتوفقها، وفي هذا الإطار يوجد الحجوي دعوة إلى المغاربة للأخذ بتلك العلوم قائلا: "استيقظوا من نومكم واعلموا أنكم في زمن ظهرت فيه من آثار العلم مخترعات... وأن علماء الطبيعة بالعجب العجاب... في السماء وحلقوا في الهواء... وداروا حول الأرض في بضعة عشر يوما... وهذا كلي إن أردتم أن تدركوه، فما عليكم إلا أن تأتوه من بابه وهو تحصيل العلوم الرياضية والطبيعية"[2].

وللولوج إلى هذه العلوم الحديثة، لا بد من التمكن من لغة الأجانب وتعلمها، لاسيما الفرنسية التي كان أهلها يفرضون حمايتهم على المغرب، كما اعتبر الحجوي أن الفرنسية شرط أساسي لتعلم الصناعة أو التجارة[3].

ورغم دعوته للإقبال على تعلم اللغات الأجنبية، بقي الحجوي متشبثا بلغته العربية التي اعتبرها حاملة لأمجاد الإسلام والعروبة. ذلك أن "الأمة التي تريد الرقي، عليها أن تبدأ برقي لغتها، لأن إغفالها هو إقبار للمجد والتاريخ العربي والإسلام"[4].

لا يكتمل تعليم أبناء المغاربة دون تعليم المرأة التي هي جزء من المجتمع، والتي تقع على كاهلها مسؤوليات جسام لا تقل عن مسؤوليات الرجال، وأبرزهن إعداد وتربية الأطفال ليصروا رجالا. ولذلك دعا الحجوي إلى تعليم الفتيات، وعندما اصطدم بالعقلية التقليدية المتوجسة من تعليمهن، حاول الاستعانة بنصوص الشرع لإثبات حق المرأة في التعليم، موجها إلى أنه لم يقف

[2] بنعدادة، م س ص 253

[1] بنعدادة، م س ص 257.

[2] م ن.

[3] الحجوي ، أصول التربية الإسلامية، م خ ع، ح 225 ص 2 .

من خلال الدراسة لهذه النصوص على دليل يمنع المرأة من التعلم، بل من حقها أن تندرج في مراتب العلم حتى تكون كمالك والشافعي[1] .

وليطمئن أولئك المترددين أو المعارض لتعليم المرأة، تخوفا من إفساد أخلاقها وذهاب حيائها يقول هذا الفقيه: "إن التعليم الذي يجلب المفاسد هو الذي لا يدخل في دائرة الشرع، وهو التعليم الأوروبي أو ما عبر عنه بالإفرنجي، والفساد الذي وقعت فيه بعض الأمم الإسلامية ناتج عن تعليمها تعليما أوروبيا، وعن منحها الحرية التي لا تتقيد بآداب ودين"[2].

وإذا كان هذا الفقيه لا يرى مانعا في تعليم المرأة، فإنه يجعل العلوم الشرعية من فقه وآداب الدين وما تيسر من القرآن على رأس قائمة مواد الطلب، مضيفا إلى ذلك مواد أخرى يجملها قوله " ومما يتأكد في حقهن، تعليمهن إدارة شؤون البيت و تدبيره، وتربية الأطفال و الاقتصاد و الحساب، وقواعد الصحة كالنظافة وشيء من الصنائع اليدوية و شيء من الأدبيات العربية و الأخلاق، بقدر ماتكون به البنت مهذبة قادرة على بث روح الأدب و اللطف في منزلها، لأنها هي المدرسة الأولى".[3]

خاتمة

تعالت دعوات الإصلاح بالمغرب خلال النصف الثاني من القرن 19 م بعد صدمة اللقاء بالآخر المنتصر في إيسلي وبعدها تطوان، وفي هذا الإطار كذلك تمكن إدراج دعوات إصلاح التعليم، لأن القطاع كان هو سر قوة أوروبا المنتصرة.

ركز دعاة الإصلاح على جوانب متعددة أبرزها أن ينبع الإصلاح من الداخل، لا أن يتم استنساخه أو فرضه من الخارج، كما أوصى هؤلاء الدعاة بإدخال العلوم العصرية التي هي سر التفوق الأوروبي وعلى رأسها العلوم الرياضية كما صرح المشرفي، لكن دون إهمال للعلوم الشرعية وعلوم اللغة التي تمثل أساس ثقافة المجتمع وقيمه، ولا ضير في الجمع بين الأمرين، لأن الدين والعلوم توأمان كما أشار السليماني، الذي ركز في دعوته الإصلاحية على مسألة القيم، إذ أوصى بأن يكون القرآن وحفظه وتعلم الكتابة والقراءة ضمن مرحلة الكتاب التي اعتبرها المرحلة الأولى في مسيرة التعلم .

---

[4] بنعدادة، م س ص 281.

[2] الحجوي، م خ ع، ح 114 ص 468.

[3] الحجوي، المحاضرة الربا طية في إصلاح تعليم الفتيات بالديار المغربية، مطبعة النهضة تونس ص 42

كما حث صاحب اللسان المعرب على تعلم ما ينفع التلميذ في علاقته بربه من صلاة ووضوء، وعندما يتشرب التلميذ هاته المعاني ينفتح على باقي العلوم في باقي مراحل الطلب، ومن بينها الجبر والحساب والكيمياء وغيرها من العلوم المشتركة بين بني البشر

أما الحجوي الذي عايش فترة الحماية، ومكنته مسؤولياته بوزارة المعارف من الوقوف على الاختلالات بقطاع التعليم، فقد اتسم مشروعه الإصلاحي بالدقة ووسع النظر، ولذلك ركز على ضرورة الانفتاح على العلوم الحديثة و الاقتباس من الأوروبيين، مما أدخله في مواجهة مع الفكر التقليدي الرافض لكل جديد، لا سيما إذا كان مصد ره أوروبا الكافرة، و اضطر للبحث عن الادلة الشرعية لإقناع اولئك الرافضين.

وعندما دعا إلى تعليم المرأة اصطدم مع فئات عريضة من المجتمع المغربي، فاحتاج إلى التأكيد والإيضاح أن تعليم النساء لا يتعارض مع الشرع، شريطة التزامهن بالحياء والآداب المنصوص عليها. وبحكم تواصله مع سلطات الحماية أقنعها بضرورة تعليم القرآن واللغة العربية إذا ارادت ضمان إقبال المغاربة على المدارس الجديدة التي أنشأتها، مما يدل على تشبث المغاربة بقيمهم التي يشكا الإسلام والعربية أهم روافدها.

وإذا كانت هذه الدعوات الإصلاحية تعود إلى القرن 19م، فإنها لا تزال صالحة للأخذ بها في محاولات إصلاح التعليم التي انخرط فيها المغرب بعد الاستقلال و من أبرز عناوينها ميثاق التربية والتكوين و البرنامج الاستعجالي.